الفصل السادس

المحتويات

- **المنهجية في الدراسات السكانية**
- **العلاقة بين العلم والمناهج والفلسفة**

obeikan.com

obeikan.com

المنهجية في الدراسات السكانية

"يعتمد علم السكان في دراساته على أسس مستمدة من النظرية الاجتماعية، وعلى منهج علمي مستقى من طرائق العلم في المعرفة، ويعتمد إضافة إلى ذلك على أدوات التحليل في ضبط وتصنيف البيانات السكانية. وتتفاعل الأسس الثلاثة (النظرية والمنهج وأدوات التحليل) في ذهن الباحث، وتكون حصيلة تفاعلها طريقة مميزة يحتكم إليها في تحليل نتائج الدراسات. إن كل تقدم في احد الأسس السابقة يعمل على التقدم في بقية العناصر. وتبعاً لذلك فأن استخدام معطيات العلم والتكنولوجيا يتعدى نطاق جمع البيانات وتبويبها إلى طريقة التحليل وضبط المتغيرات، وبالتالي إلى تعميق فهمنا بأبعاد هذه النظريات. ولعل ابرز تقدم في هذا المجال ذلك التطور الكبير الذي تم في مجال الحاسبات الالكترونية وآلات التثقيب الحديثة، مما سمح للباحثين في مضمار الدراسات السكانية بتكثيف البيانات وتبويبها والإفصاح عن الترابط التي يتم بين متغيراتها بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الدراسات السكانية. كما مكن من الإسهام في تقليل احتمالات الوقوع في الخطأ سواء في العد أو التبويب أو التصنيف أو الترميز، لتغدو البيانات بالتالي أقرب ما تكون إلى الدقة العلمية".[1]

إن أسباب الوقوع في الخطأ، كما هو معلوم، عديدة ومتنوعة، ولعل من أبرزها دخول الجانب الذاتي في تحليل البيانات، وعدم القدرة على رؤية المتغيرات السكانية بأبعادها المتشعبة. على انه يجب أن نؤكد أن الأدوات التقنية لا يمكنها بمفردها أن تقدم تحليلاً جاهزا للبيانات السكانية، بل لا بد من وضع البرامج النظرية لها والتي ترتبط بمنطق التحليل ومنهجه والنظرية التي تسيره، إذ أننا لا يمكن أن نفهم الرقم الإحصائي إلا من خلال النظرية الاجتماعية.

---

1 د. صفوح الأخرس مرجع سابق.

obeikan.com

ونـادراً مـا يختلـف الـديموغرافيين في الـديموغرافيا البحتـة فهـذه الديموغرافيا هي أقرب إلى العلوم الصحيحة، ولكن الاختلافات نجدها في المجالات الفلسفية.

إن معرفة أسس النظرية الاجتماعية، ومبادئ المنطق، وحركة التاريخ والمجتمع هي التي تمكن الباحث من التمييز بين البيانات الصحيحة وبين البيانات غير الصحيحة، كما إنها هي التي تضع تلك البيانات في إطارها السليم؛ ولا يمكن دراسة ظاهرة معينة دون معرفة كل الأسباب التي تتحكم في نشؤ تلك الظواهر، منها التقاليد والأعراف.

من الضروري معرفة مدى اتفاق الفكر مع نفسه ومع الواقع، في تحليل المسائل، إن عدم مطابقة النظريات المطروحة للواقع يعني بأنها غير ملائمة، فلكل مؤشر ديمغرافي أكثر من وجه، وجه يرتبط بالنظريات – أي الأفكار والمقولات والمفاهيم العامة ـ ووجه يرتبط بالواقع المادي ـ الزمان المكان الكم الكيف والنوع وهذه أمور ملموسة وقابلة للقياس. إن ما ينطبق على مجتمع ما لا ينطبق على آخر ـ مثلاً النظرية الماركسية حول قوانين العمل لا يمكن تطبيقها في مجتمع تسيطر عليه الإقطاعية والرأسمالية، ولا يمكن أيضاً قياس ظاهرة الخصوبة في كل المجتمعات بنفس المقاييس، مثلاً هناك مجتمعات خاضعة لتقاليد دينية معينة تضع قيوداً لوسائل منع الحمل، وللعلاقات الجنسية، وخاصة خارج إطار الزواج، مما يجعل طريقة قياس هذه الظاهرة تختلف عن طريقة قياسها في مجتمعات أخرى غير خاضعة لمثل هذه القيود. وكذلك بالنسبة لظاهرة الزواج في مجتمع يتصف أكثرية أفراده بالبعد عن الدين، فلا يمكن الاقتصار في دراسة هذه الظاهرة على النظريات الدينية التي تحدد شروط الزواج، ـ وحتى أكثر الناس تديناً أحيانا قد يخالفون أحكام الشرع في نواح متعددة وبطريقة غير مباشرة.

إن تحديد توجهات الفرد والمجتمع أمر معقد ويتطلب الكثير من الحكمة والمعرفة وعدم التعصب والتجرد، وهذه الأمور كي تتحقق يلزمها طاقات متميزة قادرة على التواصل مع كافة الثقافات.

إن أصول معرفة السكان تستند على مبادئ أساسية منها: النظريات السائدة في المجتمع، ومنهج علمي، وقدرة على التحليل. ولما كانت غاية البحث العلمي الوصول إلى معرفة جديدة، وإظهار حقائق ولو عن طريق الصدفة، ـ فمعظم النظريات العلمية تم اكتشافها بالصدفة ثم جرى التأكد من معقوليتها عن طريق الاختبار ـ، فمن الضروري التحقق من الطرق المتبعة في بناء المعرفة، دائماً هناك تطور، وهناك تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية وغيرها... إن المقارنة بين حالات في أزمنة مختلفة، أو مجتمعات متباينة، تمكننا من الحصول على قواعد عامة تتعدى نطاق بقعة جغرافية محددة، أو مرحلة زمنية محددة.

وقد حقق علم السكان في تطوره قفزات نوعية في المنهج والأداء وطرق التحليل عندما أخذ في تحويل العلاقات الكيفية إلى علاقات كمية مستخدماً الإحصاء والرياضيات في التعبير عن أحوال السكان. ولم يقتصر التقدم في ميدان علم السكان على الأسس العلمية التي أعتمدها في طرق حساب الولادات والوفيات ومعدلات الخصوبة والأعمار، بل أمتد إلى أمكانية تحويل دراساته من دراسات وصفية لفئة محددة من البشر إلى دراسات تحليلية لأعداد كبيرة من السكان، وربط المسائل السكانية بالأطر الاقتصادية والاجتماعية، فأصبحت مسائل التنمية الاقتصادية والاجتماعية تعتمد إلى حد بعيد على الدراسات السكانية، كما أن بحوث التنمية أعطت دفعاً جديداً للبحث في الإحصاءات السكانية وطريقة معالجتها.[1]

---

1 محمد قاسم، المدخل إلى مناهج البحث العلمي، الطبعة الأولى، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٩.

obeikan.com

"إن التقدم في البحث العلمي رهن بالمنهج والطريقة فان غاب المنهج خضع البحث للعشوائية وأضحت المعرفة غير علمية. ويعرف المنهج العلمي بأنه تحليل منسق وتنظيم للمبادئ والعمليات العقلية والتجريبية. فالعلم ليس إلا تمثيل مجرد للواقع، ومن ثم فهو معرفة تقتضي ذاتاً لتعرف (أساس ابستمولوجي) وموضوع مدرك (اساس أنطولوجي) والعَالم هو موضوع هذه المعرفة.

ومن ثم فلا بد لقيام علم المناهج من أن يستند إلى أسس وجودية ومعرفية ومنطقية هناك أفكار يستخدمها العلماء بداهة دون أن تخضع للتحقق أو الاستقصاء مثل: الكمي والكيفي، والزمان والمكان، والعلة والقانون ... كما إن هناك بعض الاعتقادات الهامة التي تتطلب استكمال مسيرة البحث العلمي مثل: الاعتقاد بوجود عالم خارجي، والاعتقاد باطراد وقوع الحوادث في الطبيعة والاعتقاد بمعقولية العمليات الطبيعية".[1]

لذا من الضروري التركيز في الدراسات على المواضيع التي من شأنها أن ترفع وتعزز المستوى المعرفي، وأن تساهم في إيجاد الحلول للكثير من الأزمات الإنسانية والبيئية السائدة، بغية تحقيق الخير العام، الذي كان ولازال وسيكون حلم كل إنسان على هذه الأرض، وسيكون موضوعاً للتفكر والتفلسف والتخطيط والتطوير والتصنيع ليصبح الحلم حقائق.

العلاقة بين العلم والمناهج والفلسفة

"ما زال العلم محور حديثنا فلسفة ومنهاجاً، وإذا كنا نسلم بداية أن الفلسفة ليس من حقها أن تزعم امتلاك ناصية الحق أو الحقيقة المطلقة، فإن علينا أن نؤكد أيضاً على أدوات ومناهج كل منهم. وإن اتخذنا "مناهج العلوم" أو "علم المناهج" مجالاً لتطبيق هذه المقولة، وجدنا أن هذا العلم يدرس المناهج وارتباطها بالعلوم المختلفة من جهة، كما يدرس السبل التي يسلكها العلماء

---

1 محمد قاسم، مرجع سابق ص ٦٢- ٦٣.

بهدف الاقتراب من اليقين في ميدان تخصصهم. أن العالِم المتخصص في نطاق محدود لا يستطيع أن يتبين العلاقات والروابط التي تنشأ بين الاتجاهات المتنوعة للعلم وما ينشأ من تشابك بين المناهج المختلفة وتداخلها عند دراسة موضوع واحد. وهنا يبرز دور عالم المنطق عندما يحاول أن يضع صورة عامة للمناهج التي يتبعها العقل الإنساني عند بحثه عن الحقيقة العلمية، فهو وحده القادر على الإلمام بمختلف ميادين العلم، في نظرة واحدة شاملة تهيئ له أن يدرك الملامح العامة والخصائص الكلية المشتركة بين المناهج المتبعة في فروع العلم المتعددة".[1]

"وفي رأينا أن الأقرب إلى الصواب فيما يتعلق بنشأة علم المناهج وتطوره، أن الأمر يبدأ عندما يقدم لنا العلم المتخصص تقريراً مفصلاً عن الخطوات التي اجتازها عند إعداد بحثاً في نطاق تخصصه. ثم يأتي عالم يتسم بسعة في الأفق وشمول في المعلومات ليحاول أن يحدد لنا الإطار المنهجي الذي اتبعه الباحث المتخصص وموضع هذا الإطار من المناهج المعروفة، ويأتي دور عالم المنطق في نهاية الأمر ليصنف المناهج المتاحة أمامه، بحثاً عن العلاقة بينها والخصائص العقلية للأنساق، مع صياغة النتائج العلمية التي سبق أن توصل إليها العلماء في إطار مذهبي للبحث عن الحقيقة. ومعنى ذلك أن الفلاسفة بصفة عامة والمناطقة بوجه خاص لا ينتقدون الإجراءات التي قام بها العلماء بصدد الكشف عن قوانين ونظريات، فتلك حلبة العلماء دون منازع، وإنما يتناولون المناهج التي التزم بها العلماء والتصورات والمصادرات في مسيرتهم نحو كشف العلاقة بين الوقائع والقوانين والنظريات. إن المنطقي يصوغ قواعد ويقدم توجيهات عامة يدور معظمها حول شروط سلامة الاستنتاج للاهتداء بها أثناء البحث العلمي.

---

1 محمد قاسم مرجع سابق ص٦٣.

أما الدور الأهم لفيلسوف العلم أو لعالِم المناهج أو المنطقي، فهو أن يناقش الفروض التي تقوم عليها العلوم المختلفة، ويوازن بينها ويضعها موضع الفحص والاختبار، مستنداً في ذلك إلى إلمام كاف بالعلوم التي يوازن بينها، وقدرة كافية على تحليل ما تثيره هذه العلوم من إشكالات، ومحاولة وضع حلول لها... وحقيقة الأمر أن لا غنى للعلماء عن الفلاسفة، ولا غنى للفلاسفة عن العلماء...

رغم أن للفلسفة هذا التأثير المباشر في تطور ونمو المعرفة، إلا أن هناك من ينظر إلى الحقيقة العلمية مستقلة عن الحقيقة الفلسفية، وهناك من يجعل إحداها أساس عمل الثانية، وهناك ثالثاً من يزاوج بين الحقيقتين بوصفهم نتاجاً طبيعياً لعقل الإنسان.[1]

"ويعبر عن هذا الموقف الأخير بصدق "محمود زيدان" في خاتمة كتابه : من نظريات العلم المعاصر إلى المواقف الفلسفية بقوله: إن العلم والفلسفة ليس أحدها غريب عن الآخر . فالفلاسفة مشغولون منذ أقدم العصور بالعلم الطبيعي ومحاولة فهمه وتفسيره. على قدر ما أوتوا من معطيات وأدوات، بينما الفلاسفة حديثاً يعتمدون على زملائهم العلماء في النهل من علمهم ومحاولة الإفادة من هذا العلم في بناء نسقهم الفلسفي. وكثيراً ما يخرج العلماء من ميدان بحثهم العلمي تشدهم مشكلات الفلسفة ويحاولون تكوين مواقف فلسفية تتسق ونتائج بحثهم، كما ينهلون من تراث الفلاسفة. وبذلك يهتم الفلاسفة بأبحاث العلماء كما يهتم العلماء باتخاذ مواقف فلسفية، وكل فريق يستفتي الفريق الآخر في مجال دراسته، بحيث نصل في نهاية المطاف إلى إدراك أن الهدف الأسمى لكلا الفريقين هو تصور عن الكون بالإجمال أو بالتفصيل، أو تفسير العالم الذي نعيش فيه. وكما يختلف الفلاسفة بعضهم

---

1 محمد قاسم مرجع سابق، ص ٦٤- ٦٥.

عن بعض من تصوراتهم أو وجهات نظرهم، يختلف العلماء بعضهم عن بعض في مواقفهم الفلسفية. إلا أن "محمد ثابت الفندي" يتحفظ على هذا التداخل الذي يكاد ينال من دور الفلسفة في القيادة ومبادراتها في التوجيه، ويقترح علاقة بين العلم والفلاسفة تستند إلى ممارسة النقد الذاتي وهو عماد الفلسفة المحقة. فقد نشأت حركة نقد ذاتي لمجموعة الأفكار والمبادئ والأسس التي يقوم عليها بناء العلم ونظرياته المشتقة منها، فتنتج عن هذه الحركة النقدية الواعية مبحث "فلسفة العلوم" مجالاً مثمراً للتعاون بين العلماء والفلاسفة ينشد تقويم الحقيقة العلمية في نطاق حقائق المعرفة الإنسانية. فالمنهج العلمي هو مزيج من الجدل الدائم بين الحقيقة والخيال بين ما هو واقعي وما هو محتمل، وبين ما يمكن أن يكون حقيقياً وما هو حقيقي فعلاً. أن هدف البحث العلمي لا يكمن في تجميع ما يمكن تجميعه من وقائع متجانسة... بل إن هدفه في الحقيقة هو بناء تشكيل منطقي مقنع".[1]

أما بالنسبة لنا نقول بأن هناك أشياء نفهمها بسهولة وأشياء كثيرة في هذا العالم نجهلها يلفها الغموض، ولم يتوصل العلم حتى يومنا لفك ألغازها، وحين يصل المرء إلى هذه المرحلة من الضياع يبدأ بالتأمل والبحث للوصول إلى الحقيقة، وهذا البحث يستمر ولا يتوقف ما دامت هناك أشياء تسبب لنا الحيرة. إن كلمة منطق مشتقة من النطق والناطق هو الإنسان العاقل الذي يستخدم عقله ويسخره وفقاً لحاجاته. وهذه الخبرة العملية موجودة بالفطرة عند الإنسان وقد تطورت عن طريق التجربة؛ فالوعي عند الكائنات الحية يتطور عن طريق المحاولة والخطأ.

وكلما كانت التحديات اكبر كلما كانت الاستجابة أعنف لمواجهة التحديات والصعوبات.

---

1 محمد قاسم مرجع سابق، ص٦٨.

الإنسان يعمل على تحسين أحواله بواسطة العقل الذي يقوم بتحليل الواقع، والنظريات المرتبطة بالزمان والمكان، ويتأمل في طبيعة العلاقات القائمة بين الأفراد والمجتمعات، وفي كل الأمور التي تمس حياته ووجوده في هذا العالم، ولا يمكن أن نفصل بين التجارب والعلم وبين التحليل الذي هو أساسه الفلسفة.

obeikan.com